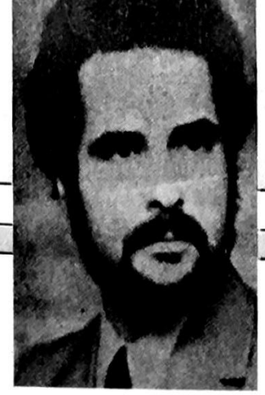

حيثما يبدأ الشاعر.. تبدأ "شجرة الحديد"

يتتبع الشاعر المغربي السجين عبد اللطيف اللعبي في ديوانه « شجرة الحديد المزهرة » مسيرة حياته بالشعر الذي يفتح دروب المستقبل . او كما يقول اللعبي نفسه ، الذي يحطم خرافة المستقبل ويسبر غوره .

ثلاثة عوامل جوهرية اتاحت للشاعر اتخاذ موقف الرفض ضد سلطة النظام الملكي والتغني بالثورة ـ الامل ـ الاتية بشكل حتمي دون ريب :

اولا : نكسة حزيران .

يقول : « لقد استيقظت نهائيا
على حريق النابالم المشوه
وكان اول ما رايته
العيون التي لا تفسد
لرجال فلسطين الملثمين
الذين يرفعون التحدي » .

ثانيا : مجموعة صور ومشاهد فاجعة يتذكرها الشاعر .

تحتم وجود هذا العامل بعد ان كان يعيش على مرفا الذاكرة . من تلك الصور والمشاهد : مجازر الريف في « العشارات » عام ١٩٥٩ ، مجادر كازابلانكا عام ١٩٦٥ ، الشهداء المكدسين في المقابر ، النساء المذبوحات ، التلامذة الصغار ، المراهقين الملوحين بحقائبهم المدرسية في زمن الانتفاضة الشعبية الثورية ، جوع وحرمان عمال المناجم في « خوريغبا ». يعقب عبد اللطيف اللعبي على هذه الصور قائلا : « يمكن ان تنساها الدمى ذوات القلوب الفلينية .. وليس الرجال » . اما عن بقية الصور الفاجعة فهي وليدة عام ١٩٦٩ وبعده . فمنذ عام ١٩٦٩ وعلى صعيد الصراع الطبقي ونضال التحرر الوطني عرف الشاعر اللعبة المفتوحة التي قامت بها الطبقة الحاكمة في المغرب لخدمة الامبريالية والصهيونية . اذ ان شهري حزيران ـ تموز ، من ذلك العام ، شهدا في الوقت نفسه مباحثات الحسن الثاني مع ناحوم غولدمان ، والتفاهم الذي تم مع فرانكو بصدد اقتسام ثروات الصحراء الغربية العربية .

في شباط ـ اذار ١٩٧٠ ، جرى اضراب الثانويين الذي كشف عن كثير من الامور ، فهذا الاضراب الذي انطلق من نفس الغضب الذي تحسه الشبيبة ضد عملية تخريب التعليم ، سرعان ما اكد، اذ شارك فيه الطلاب الجامعيون ، على الامكانية الثورية لدى الشبيبة الطالبية .

في الرابع من ايار ١٩٧٠ ، وهو اضراب جرى كعملية احتجاج ضد زيارة الوزير الاسباني لوبيز ـ برافو ـ وضد تواطؤ الحكم المغربي مع الامبريالية العالمية بصدد مسالة الصحراء المغربية . ولكن صيف ١٩٧٠ ، كان هو الصيف الذي بزغت فيه كل التناقضات ، اذ كانت تشهد الافتتاحية التي كتبها الشاعر عبد اللطيف اللعبي بتاريخ ١٧ آب ونشرت في العدد ١٨ من مجلة « انفاس » التي يرئس تحريرها ، والتي كانت الوحيدة بين صحف المغرب التي وقفت ضد مشروع روجرز .

ثالثا : الحب

حب المراة التي تقوم « النصف المنهار من القبة السماوية الزرقاء » . حب امرأته . ليكون الحب والثورة معا ، اثنان في واحد .

في قطعته التاملية الطويلة التي نشرها تحت اسم « العين والليل » يتخلص اللعبي من ماضيه ، ولعل هذا ما يفسر اسلوبها المنغلق ، كما يفسر في الوقت نفسه محتواها العربي العميق . وبعد مرور شهرين على كتابة قصيدته هذه ، انضم اللعبي الى مجموعة هامة من المثقفين المغاربة الذين دعوا لتشكيل لجنة فلسطين ـ فيتنام ، هذه اللجنة التي ربطت في اطار واحد ، بين النضال من اجل تحرير فلسطين والتضامن مع الشعب الفيتنامي . وفي نيسان ١٩٦٨ تلاقى معظم هؤلاء المثقفين ، وغيرهم من الفنانين والكتاب والمدرسين ، في سعي مشترك يهدف الى توضيح واستخلاص اسس ثقافية قومية حقيقية تنهض في وجه السيطرة النيوكولونيالية القائمة بعملية تمزيق ثقافي . وكان السؤال الذي يفرض نفسه عليهم : كيف الوصول يا ترى الى ثقافة قومية حقيقية ضمن الاطار الثقافي المعادي للقومية ؟ وجاء الجواب سريعا : بالتعبير الصادق عن هموم الشعب والالتحام بقضاياه .

لقد حقق اللعبي التعادل بين العمل السياسي ، او بالاحرى ، كتابة قصائد ذات اهداف سياسية والعمل الشعري مبنى ومعنى نحو : منشور تعبئة ، كلنا لاجئون ، الغرود الالكترونية .

العمل السياسي مشروط بظروف معينة ، ذاتية وموضوعية ، وخاضع لمنهجية تكتيكية واستراتيجية . والعلاقة بالشعر والفن عامة مسالة طاقة او قدرة على الاستجابة والتذوق والمشاركة الفنية . لذا ، لم تكن القصيدة بالنسبة له ، او لنا، بؤرة احتمالات تحمل معان عديدة مختلفة بقدر ما كانت تعطي معنى واحدا محددا : الابيض ابيض والاسود اسود ، بهذا المعنى ... ومع ذلك لم يتسم شعره بالتقريرية وانما اتسم شعره بالسمات التالية:

- تجاوز الشفوية الخطابية
- تجاوز الانواع الادبية التقليدية .
- تاسيس نوع جديد من التعبير الشعري بحيث تصبح القصيدة كتابة جديدة ، سبقه اليها الشعراء: محمد الماغوط ، يوسف الخال ، انسي الحاج ، رياض نجيب الريس ، جبرا ابراهيم جبرا ، فؤاد رفقة .. وان كان لنا ملاحظات عديدة على موضوعات شعرهم والى من يتوجهون فيما يكتبون باستثناء الشاعر محمد الماغوط . مع اولئك الشعراء ، نحن امام الشعر الفعل الواعي المتسربل بالفطرة والسذاجة والبراءة وانفعال النفس وعدم عقلانيتها ..

وحينما جسد الشاعر اللعبي التزامه في الانضمام الى حزب التحرر والاشتراكية بدات تاخذ مجلة « انفاس » شكلها الصحيح . عدد خاص بالثورة الفلسطينية ع ١٥ (رغم انه احتوى على بعض الكتابات المبهمة التي وضعها بعض المثقفين التحريفيين الذين راهنوا في عام ١٩٧٠ على مواهبهم الاكروباتية، الا ان العدد كان بشكل عام اشبه بقطيعة تامة مع « انفاس » المثقفين البورجوازيين الصغار) .

والواقع ان جهد مجلة « انفاس » الذي تجسد في العدد ١٦ ـ ١٧ ، المكرس لمهرجان للجزائر الثقافي ، عبر العدد ١٩ المكرس للثورة في افريقيا

قد عكس هذه الارادة التواقة الى تجاوز الثقافة التقليدية التوفيقية (الاصلاحية) تجاه القضايا الهامة ، والى توكيد المفهوم الثوري لبناء الامة العربية .

هذا السعي الدؤوب ينفخ الدخان تحت العرش الملكي بشكل او باخر ، ويجعله عرضة بانتظار الشرارة التي تحرق وتدمر .. مما حدى بالجهاز القمعي للسلطة ان تقبض عليه وتزجه في السجن ليلة ٢٧ كانون الثاني عام ١٩٧٢ . ليلة التوقيف ، وداعه لزوجه وطفليه ، الذكريات القديمة والاحاسيس الصغيرة والبسيطة الهمت الشاعر لان ينشد لزوجته وطفليه كما انشد اراغون لعيون الزاتريولية وناظم حكمت لزوجته بريا وولده محمد ..

الديوان قصيدة طويلة ، نستطيع تفتيت جسدها تحت عناوين قصائد ، موزعة على : زوجه ، طفله ياسين ، طفلته هند .

بنية القصيدة الاولى واضحة لا غموض فيها . وعناصرها الداخلية واحدة . يقودنا هنا .. الى ضرورة مناقشة اللغة الشعرية بوصفها العامل الاساسي الذي يحكم بنية القصيدة والتسلسل المنطقي لهذا التناء ، فنجد ان الشاعر يحاول بناء قصيدته على قاعدة التداعيات التي تتشابك فيها اللحظات بكلمات بسيطة وصور بسيطة ايضا غير مركبة .

القسم الاول يصف فيها زوجه ، يتفرع هذا القسم بدوره الى :

اولا : المسيرة الطويلة ، نحو الحبيبة لكي يكون « جديرا بالكلام عنها » .

ثانيا : « ثم كانت يدك وحنان العالم
ذاك الذي لم اتعلمه في الكتب
ولا وجدته في الازقة » .

ثالثا : « ثم كانت عيناك
مثل تلك النار فوق الجبل » .

- الموضوع الاول للقسم الاول من القصيدة (اولا ، ثانيا ، ثالثا) يتمثل في المسيرة ، مسيرة العذاب الطويل للوصول الى حبيب : يدها وحنان العالم ، عيناها ... هذه المحاور الثلاثة ذكرها الشاعر من اجل ان يصل الى الموضوع ـ الوقف الحاسم ـ « من منا يكتب القصيدة ـ طالما انك تملكين يدي » و « لم اكف ابدا عن المسير ـ نحو جذوري كانسان ـ دون كشافين ـ دون بوصلة ـ باستثناء غضبي النابع من رئة الشعب » .

• الموضوع الثاني : الصرخة !

(...) أنادي الصحراء المسكونة
بالكلمة
أنادي صمت البداية المدوي
أنادي الماء في انبثاقه من المنابع
المجهولة
والمساقط المرعبة
أنادي الذي يولد من الارض
ومن يد الانسان .

• الموضوع الثالث : الموت

« ميتة أيتها المدينة التي لم تف
بوعدها
وشردت قبائلها وجاءت بالمرتزقة
ميتة ايتها المدينة التي
لم تصغ للجبال والرمال
لم تصغ لاتهامات شعرائها
ميتة ايتها المدينة التي اتت بجذورها
من وراء البحار
دون ان تخشى التآكل الحتمي
ميتة ايتها المدينة التي
لست سوى بيرق للغزوات
اسطبل للجياد وقلعة للمرتدين
أيتها المدينة التي ماتت
حين انخدعت بسراب المحيط » .

• الموضوع الرابع : الحياة

« انت المدينة التي ستشاد من جديد
رغم النهب والاغتصاب
رغم مجون السلاطين
وتدهور العائلات المالكة » .

هذه الموضوعات تصبح بمجملها ، نصا سياسيا اجتماعيا . موضوعاتها الداخلية (الحياة) . (الزوجة ، الفجر ، النضال ، الحب الثورة) ، ندمجها بالتضاد الذي تحفل به القصيدة ، لنتوقف عند (الموت) بوصفه النقطة المفصلية التي توحد الجدب بالمعاناة (الصحراء المسكونة) المساقط المرعبة ، دوامة الانبثاق الجامدة ، ساحات النار النائمة ، السماء المجلودة بالصولجان ، المدينة الميتة ... الخ » وكمحاولة وضع تلك الموضوعات الاربع تحت مجهر تطبيقي نصل الى انموذج توقعي ينطلق من الاهداف بوصفها مستقبلا . وليكن لدينا الخطوات التالية :

اولا : يجب ان يتحقق .
ثانيا : بدا يتحقق .
ثالثا : يسير الى تحققه .

بمقارنة الموضوعات الاربعة السابقة مع الخطوات الثلاث نجد ان الموضوعات تتميز ببنائها المنطقي : المسيرة ، الصرخة ، الموت ، الحياة .

ولكن .. الحياة لم تات هكذا دون تضحية . فالشاعر حسين سجن قال لزوجه : « لم آكن الاول ولا الاخير » .

وقال لرفيقه :

« اصمد جيدا ايها الرفيق
ارفع هامتك
فالالم الذي يحرق جسدك
ليس سوى الخبز والملح المقتسمين
ليس سوى عتبة الاخوة » .

ومن هنا كان وجود الخطوة الاولى حاضرا « يجب ان يتحقق » وغياب الخطوتين ، الثانية والثالثة . لان الثورة حتمية . لم يقل الشاعر بدات .. او انها تسير الى تحققها بل قال يجب ان تتحقق لان الثورة لا تاتي صدفة بل نتيجة جهد وتخطيط ومثابرة .

القصيدة الثانية الى ولده ياسين .

يقول الشاعر عبد اللطيف اللعبي :

« ولدي الحبيب ـ وصلتني رسالتك ـ انك تحدثني حديث الناضجين ـ وتروي بيقين جهودك في المدرسة ـ من كلماتك اشعر بتوقك الى الفهم ـ الى طرد الظلمة والبشاعة ـ ولدي الحبيب وصلتني رسالتك ـ عنواني كتبته اصابعك ـ كتبته بيقين (...) ـ تتخيل السجن شيئا خبيثا ـ سيئا ـ شيئا لا معنى له ـ يجعل الناس حزانى ـ او شديدي الغضب ـ وتفكر ايضا بأن الذين شادوا السجون لا بد انهم فاقدوا عقولهم .. ـ اجل يا ولدي الحبيب ـ من هنا يبدأ التفكير وفهم البشر ـ وحب الانسان ـ وكره الطغاة ـ » .

اما قصيدته الى ابنته هند فيقول فيها : « ربما لن تفهمي ـ كلمات هذه القصيدة كلها ـ ولكن اسمعيني ـ ليست عسيرة على الفهم ، ـ القصيدة ـ او على الاقل هذه التي اكتبها لك ـ انها مثلما اعانقك بشدة عند المساء ـ واقبلك ـ قبل ان اضمك في السرير ـ آترين ؟ ـ ها انا كتبت لك قصيدة ـ ها انا اقبلك ـ اعانقك بشدة ـ واشعر انني منك قريب (...) ـ ... »

« قويا بكل ما تعلمته من الشعب ـ قويا بالمي ـ قويا بحبنا ـ لقد ولدت لتوي ، من الكلمة » .

الانتقال من الخاص الى العام او من الوقائع البسيطة الصغيرة الى المفاهيم الكبيرة يضعنا تجاه شعر من « لحم ودم » . فقصائد اللعبي ، مع احتفاظها « بعدواها » العاطفية الكبيرة ، والانسانية الصادقة تفهم فهما اعم واشمل على مستوى فلسفي واسع . ان حوادث مميزة صغيرة تعيش في وعي الشاعر ، كما تعيش في وعي اي انسان ، لكن الصعوبة تكمن في تذكرها وطرحها على هذه الصورة من العفوية والصدق ، لتؤثر بدورها ، تاثيرا واضحا في حياتنا وطرق تفكيرنا تجاه المستقبل .

محمد جمعه حمادة